Available online at http://jgu.garmian.edu.krd

Journal of University of Garmian

https://doi.org/10.24271/garmian.196213

تفكيك مركزية الزمان في خطاب محمود درويش الشعري

ظاهر لطيف كريم[1] ، جمال سليمان مصطفى[2]

1 قسم اللغة العربية، كلية اللغات، جامعة السليمانية-

2. قسم اللغة العربية، كلية التربية الأساس/،جامعة صلاح الدين

Article Info

Received: 2019

Revised: 2019

Accepted: 2019

Keywords

الزمن، التفكيك، الخطاب، الميتافيزيقيا

.

Corresponding Author

dahir.karim@univsul.edu.iq

الخلاصه

إذا كان الشعر من الاجناس التي يصعب تحديد مفهومها وبيان ماهيتها، فإنّ أحد اسباب هذه الصعوبة كامن في طبيعة الموضوعات التي يتناولها، وقد كان الزمان من ضمن المواضيع التي تناولها الشعراء، فقد شكّل الزمان قلقاً بالنسبة لهم، ومنشأ هذا القلق ناتج عن الغموض الذي يلفّه، وما يحمله من مفاجآت، فكان موضوعاً من الموضوعات المحوريّة التي شكّلتْ خطاب الشعراء وبضمنهم خطاب محمود درويش الشعري.

وقد كانت رؤية المناهج والاستراتيجيات النقدية وأسسها لقراءة تلك الخطابات الشعرية والوصول إلى كوامنها الخفية مختلفة ومغايرة، انطلاقاً من مرجعياتها المختلفة، وقد حاولت هذه الدراسة قراءة الزمان وتجلياته في خطاب محمود درويش الشعري متّخذاً من استراتيجية التفكيك منطلقاً لها، وكذلك من رؤيته؛ أي رؤية التفكيك للزمان، مرجعية لها، تلك الرؤية التي تختلف عن غيرها من الرؤى والاستراتيجيات الاخرى، لتجيب عن السؤال الآتي: كيف طرح خطاب محمود درويش الشعري إشكاليةَ الزمان؟ وذلك للوقوف على أهم الأفكار المغايرة التي طرحها هذا الخطاب، والوصول إلى التحولات التي طرأت على هذا الخطاب، زمانياً، نتيجة تطور الوعي بالمراحل التي خاضتها التجربة الشعرية.

المقدمة

مفهوم الزمان الميتافيزيقي وتفكيكه : يعتبر الزمان من أكثر المصطلحات إشكاليةً من حيث صعوبة تحديد مفهومه وبيان ماهيته، والصعوبة لا تنطلق فقط من تناوله من قبل علوم وفلسفات، فتعددت مفاهيمه عندهم، بل لأنّه؛ أي الزمان، لا يتشكّل ولا يبدو كصياغة أو هيئة تكون له حدوده بحيث يمكن التثبت منه، إذ إنّ "الزمن أولاً ليس شيئاً بالمعنى الاستعمالي للكلمة، فهو لا يملك نمط الواقع نفسه الذي تملكه طاولة او كرسي، وثانياً فإن اللغة تنحسر أمام الحديث عنه"[i]، ولذلك توجهت كلُّ رؤية وجهتها الخاصّة بها في تحديد ماهية الزمان ومفهومه، بدءاً بالأديان مروراً بالفلسفات والعلوم[i] وانتهاءً بالنقد.

وإذا كانت النظرة الميتافيزيقية تحدد الزمان على أنه عبارة عن الآنات الثلاث (الماضي والحاضر والمستقبل)، فإنّها اختلفت في تحديد الأصل من بين هذه الازمنة الثلاثة، فبعضهم عدّ الحاضرَ الأصل فيها[ii]، أمّا الماضي فهو ما تحقق ولم يعد له وجود، وكذلك بالنسبة للمستقبل إذ لم يدخل بعد في حدود التحقيق، إذن فالماضي -وفق هذه الرؤية- ممحوٌّ، لا وجود له، والمستقبل مخبوءٌ، والحاضر هو الذي يشكل الزمان.

ومنهم من رأى أن الأصل في الزمان هو الماضي لأنّه يرتبط "بفعل التذكّر، أي سيكون الأصل في الزمان هو "الماضي" لاعتبار واحد وهو أنّ الماضي وحده من بين آنات الزمان الثلاث الذي لا يتحوّل إلى زمان آخر، فالحاضر ما يلبث أن يصبح ماضياً،

والمستقبل لا يمكن الامساك به .. ولكنّه.. سيتحول هو أيضاً إلى زمانٍ ماضٍ"[iv].

وهناك من يرى أنّ الآنات الثلاث للزمان هي التي تشكل الزمان إذ "ليس الحاضر وحده هو ما يخبرنا عن زماننا، رغم إحساسنا اللحظي به، وليس الماضي ولا المستقبل وحدهما اللذان يعلماننا عن الزمان، بل هذه الأشياء جميعها مترابطة هي التي تدلّنا عليه"[v].

ومنهم من أنكر وجود الزمان كموضوع واعتبره مجرد تصورات ذهنية، لأنّه "إذا كان الماضي لم يعد موجوداً، وإذا المستقبل لم يوجد بعد، وإذا كان الحاضر غير موجود دائماً"[vi] فكيف يستطيع الزمان أن يوجد، لذلك فالزمان مرتبط بالذات وليست له كينونة خارج الذات، وما هذه التقسيمات الثلاث إلا حيلة لجأ إليها العلم اضطراراً، نتيجة التغيير المستمر والصيرورة التي يشعر بها الانسان في حياته.

إنّ هذه الرؤية غير المحسومة تجاه تحديد دقيق للزمان تنطلق من حركية الزمان وعدم ثبوته، وكذلك الطابع المفارق للزمن الذي يتمثّل في أنّه في الآن نفسه ثابت وزائل، فهو دوماً هنا لكنه ليس دائماً مطابقاً لنفسه، إذ حدوثه وجريانه يتداخل فيهما بشكل متناقض الدوامُ والتغييرُ[vii]، فـ"المستقبل [مثلاً]عدم سيصبح وجوداً، لكن عندما يصير كذلك يبطل ان يكون ذاته، أي إنّ من طبيعته ألّا يكون، والماضي عدم كان وجوداً لكن عندما كان كذلك لم يكن ماضياً؛ أي، إنّ من طبيعته ألا يكون"[viii]. وكذلك بالنسبة للحاضر الذي ما يلبث أن يكون ماضيّاً، إنّه يجمع بين المتناقضين أو يحققهما في الوقت نفسه، إنّه حاضر وعابر، ممكن ومستحيل لذلك فـ"ليس الزمن مجرّد تحقيق للإمكان، بل هو حامل خطورة الاستحالة، لأنه حدث طارئٌ عابر مجازيٌّ، زمان لمح البصر، إنّه زمانٌ خياليٌّ حكائيٌّ، شبحيٌّ لأنّ "ما يقع في هذه اللحظة" يختفي على التو ويتلاشى .. فهو ممكن أي مستحيل .. المستحيل هو أثر الممكن أو ما يتبقى منه، ما يعود وما يتحوّل، والممكن هو أثر المستحيل"[ix].

وقد انطلق التفكيك في رؤيته للزمان انطلاقاً من استراتيجيته المقوّضة لكل تفكير ميتافيزيقي، ليس من أجل تقويضه واحتوائه من جديد وإنّما لبيان أنّ هذه الرؤية تجاه الزمان تنطوي على ضلال مرجعي[x] شكّل مركزيةً اعتُبِرَتْ المصدرَ أو المركزَ الذي يمدّ الرؤى المتمركزة حوله بالمعاني والدلالات والرؤى الخاصة بالزمان، لذلك فقد طرح التفكيك رؤية مغايرة للرؤية السائدة تجاه الزمان، تلك الرؤية أو النظرة الميتافيزيقية التي ترى أن الزمان ليس إلا تتابعاً خطياً للآنات الثلاث (الماضي والحاضر والمستقبل)، فضلاً عن ربط الزمان بالاشياء المحسوسة والأحداث.

والتفكيك بما أنّه فلسفة اختلافية يتجاوز رؤية الزمن على أنّه تتابع خطّي بين الماضي والحاضر والمستقبل؛ ذلك الزمن الذي يكون الماضي فيه ما لا سبيل للوصول إليه، والحاضر الذي يمثل الحضور والمستقبل المنتظر، بل يتأسس على تعريف مختلف للزمن فينظر إلى الماضي على أنّه ما ينفك يمضي، وإلى الحاضر على أنّه ما يفتأ يحضر[xi]، و"بهذا الشكل يستطيع التراث أن يقيم بيننا بعدما أقبل نحونا في زمن القراءة"[xii]، وهذه الإقامة هي إقامة في اللغة.

وقد صرّح دريدا بذلك وكشف عن موقفه من الزمان إذ يقول: "أنا لا أقول بلحظة تجزئ الزمن حسب مسار خطّي: القبل، الآن والبعد، أو الماضي والحاضر والمستقبل. إنّ هذه اللحظات تتعايش مع بعضها. فالماضي هو دائماً ماضٍ دون أن يمضي نهائياً، والحاضر هو دائماً حاضر دون أن يحضر كليّاً، أو هو لإمعانه في الحضور يحول دون حضوره، فيبقى متّسماً بشحوب الماضي"[xiii].

وإذا كان التصور الميتافيزيقي للزمن يرى الماضي (ما كان) والحاضر هو (الآن) والمستقبل (ما سيكون)، ويرى أيضاً أنّ ما يحضر في الزمان هو (الآن)؛ أي أنّ الزمان يدرك انطلاقاً من الآن[xiv]، فإنّ **فلسفة الاختلاف** لا تنظر إلى الحاضر باعتباره (الآن)، وإنّما باعتباره (اللحظة) وما يميّز اللحظة من الآن هو أنّ "اللحظة ليست أصغر جزء من الحاضر، إنّها تفتح الحاضر أو تصدّعه"[xv]، لذلك فالذي يميّز هذه الرؤية هو إدراك الزمان انطلاقاً من اللحظة وليس من الآن، واللحظي هو ما يقوم ضد هذا الزمان الحاضر[xvi]، إذ "سيكف الحاضر عن ان يكون قطعة من الديمومة المستمرة وستحرر من ثقل الماضي الجاثم، أو على الاصح ان الماضي هو الذي سيتحرر من الحضور لنصبح أمام حضور لا زماني للحاضر، حضور على شكل لحظة منسوجة على أرضية من النسيان"[xvii].

وللدلالة على هذا الحاضر المتصدع يستعير دريدا من ليفيناس مفهوم الاثر[xviii] trace الذي لا ينفعنا في تحديد أنماط الزمان الميتافيزيقية[xix]، ومصطلح الأثر من المصطلحات المحورية في النقد التفكيكي وهو "ما يشير وما يمحو في الوقت نفسه، أي ما لا يكون حاضرا ابداً"[xx]، ولهذا فإذا أردنا أن نتمثل الزمان بعيداً عن الميتافيزيقيا يجب أن نتمثله بعيداً عن مفهوم الحضور[xxi]، سواء أكان هذا الحضور حديثاً عن الماضي أم المستقبل، وبعيداً عن مفهوم الخطيّة.

. إذن فرؤية التفكيك تجاه الزمن تتمثّل في: .

1- أنّ الماضي –مثلاً- ينطوي على المستقبل، ومنشأ أو سبب هذا التداخل هو القلق أو التوقع الذي يأتي مِن استباق المستقبل كزمان، وكذلك بالنسبة للحاضر. .

2- يقوض التفكيك فلسفة الحضور ويحدد الزمان كعودٍ أبدي[xxii].

3- الزمن مشطوب (×)[xxiii] وذلك لأنّ الزمن هو إدراك حسيٌّ متقطِّعٌ تقوم به آلة نفسية[xxiv].

وانطلاقاً من هذه الرؤى التفكيكية تجاه الزمان والتي تدعم لا خطية (لا تاريخية) الزمن، فضلاً عن عدم الاستقرار الذي هو ذاتية في القراءة والتجاوز الذي يمارسه الخطاب الشعري لكل أشكال القصدية، يمكننا ان نقارب الخطاب الدرويشي لنستنبط الدلالات الكامنة والخفية خلف الدوال.

إنّ الدراسة تتجاوز إشكالية فكرة وجود الزمان وجوداً مستقلاً أو فكرة وجوده مرتبطاً بالانسان، وتنطلق من علاقة الزمان بالذات الانسانية. فالذات الانسانية تعيش مفارقات زمانية تصطدم مع الواقع المعيش، والسبب في ذلك يعود إلى طبيعة الزمان ذاته ومن ثمّ علاقته بالانسان. فضلاً عن تساميها بالزمان الخطي الذي تعيشه لبلوغ لحظات زمنية تنقطع فيها أن تكون زماناً خطياً متتابعاً، إذ تحرر الذاتُ الروحَ من الرتابة الزمانية والتاريخية إلى أبدية تواجه بها صيروراتِ وتحولاتِ الذات من البقاء إلى الفناء لتعكس الحركة أو توقفَها حتى تهبَ الروحَ الحياةَ الأبدية بحيث تتوقف أو تنعدم الزمن.

انطلاقاً من هذه العلاقة بين الذات والزمان، فإنّ الذات تحاول ان تتجاوز تلك اللحظات التي تواجهها وتشكل قلقاً مصيرياً لها، ذلك القلق الذي يصرفها عن العالم الخارجي لكي ترتد إلى العنصر الاصلي في وجودها الذي هو الجانب الروحي[xxv]، فضلاً عن حضور الماضي الذي يعود على صيغة تذكر تشكل مع القادم من المصير لحظة الحضور، لذلك تحاول الذات الانسانية أن تتجاوز هذه اللحظات وتجد بديلاً أو مكملاً يسمو بها من تلك اللحظات، وذلك بالاستغراق في الفن، لأنّ "الفن وسيلة للتغلب على الزمن ولبلوغ لحظة الابدية"[xxvi]، وكذلك التعمق في لحظات العظمة وتأبيدها عن طريق نشدان عودتها أبديّاً.

إنّ هناك زماناً ليس له وجود أصلاً يشكل لحظات الانسان، فالماضي قد يكون له حضور على شكل ذكريات وللمستقبل أيضاً حضور بصيغة توقّعات أو قلق يؤرق الانسان بحيث يسلبان الحاضرَ الآني من الانسان ويفقدانه حضوره.

ومن المعروف أن النظرة العامة تجاه الماضي نظرة مركزية تقدس الماضي بحيث يبدو - بكل تجلياته - الأفضلَ والأصوب، في مقابل ذلك فإنّ المتأخِّرَ أو المعاصرَ/ الحاضرَ هامشيٌّ لا يؤخذ به وهو مردود، فإذا أراد الانسان أن يكون أقرب إلى الحقيقة فعليه أن يعود إلى الماضي أو من سبقه، وقد نالت هذه النظرة من الخاصة كما العامة، وقد أدرك الجاحظ خطورة هذا التوجه فقال: "إذا سمعتَ الرجلَ يقول: ما ترك الأَوَّلُ للآخِرِ شيئاً، فاعلمْ أنه لا يريدُ أن يُفلِحَ"[xxvii].

تفكيك الزمان في الخطاب الشعري

وانطلاقاً من استراتيجية التفكيك في تقويضه لكل الرؤى المركزية التي تستمد المتعالي من المثال المقدّس يمكن تفكيك هذا المنظور المركزي للزمان وتجلياته، ففي قصيدة (أوديب) تعكس الذات الشعرية هذه الصورة، إذ تنظر إلى الماضي نظرة هامشيّة يعلي من شأن الحاضر ويمركز (الآن):[xxviii]

ما حاجتك للمعرفة ... يا أوديب

ما حاجتي للمعرفةْ؟

لم ينجُ منّي طائرٌ أو ساحرٌ أو امرأةْ.

العرش خاتمةُ المطافِ، ولا ضفافَ لقُوَّتي

ومشيئتي قَدَرٌ. صنعتُ أُلوهتي

بيدي، وإلهةُ القطيع مُزَيَّفهْ.

ما حاجتي للمعرفةْ؟

السرُّ في الإنسان،

والإنسان سَيِّدُ نفسه وسؤالِهِ

لا علم إلاّ ما يراهُ الآن،

والماضي دموعٌ مُتْرفةْ

ما حاجتي للمعرفةْ؟

....

ماضيَّ سرٌّ لا يُؤرّقني،

....

مَنْ أطلق الماضي عليّ كأخطبوط حول روحي التائهْ

مَنْ دسَّ في خمري سموم المعرفةْ؟

ما حاجتي للمعرفةْ؟

وقد وظّف الشاعر اسطورة أوديب[xxix] التي تعد مصدراً من مصادر الاحساس بالذنب بعد المعرفة بالحقيقة[xxx]، وإذا كان أوديب قد عاقب نفسه بأنْ أفقأ عينيه لِما فعله بعد أن عرف ما فعله في الماضي الذي يشعره بالذنب، فإنّ ما لا يجب الالتفات إليه في رؤية الذات هو الماضي:

لا علم إلاّ ما يراهُ الآن،

والماضي دموعٌ مُتْرفةْ

ما حاجتي للمعرفةْ؟

فمعرفة الماضي سرٌّ لا يؤرق الذات، وإذا كانت المعرفة هي أخذ أو اعتماد على مصدر سابق فإنّ الذات تخلق معرفتها بنفسها في الحاضر، إنّها تستغني عن البداية أو التسلسل الخطي

للزمن لخلق اللحظة؛ والماضي بتجلياته المعرفية لا دور له في صياغة زمن الذات الذي هو الحاضر، ولهذا فإنّها تستغني عن الماضي، وتتكرر جملة "ما حاجتي للمعرفة؟" التي هي استفهام في الظاهر لكنه استفهام انكاري في البنية العميقة، ينكر على الماضي جدوى الاخذ منه ويهمشه، ويعلي من شأن الحاضر.

وقد تتجاوز الذاتُ الحاضرَ وذلك لمّا لم تجد من التاريخ كزمنٍ المرجوَّ منه من عدالة وسعادة، إذ أصبحت دائمةَ البحث عن البديل المُكمل الذي ينقذها من لحظتها الزمنية الأفقية، لتخلق لنفسها زماناً لا متناهياً تنعدم فيه الحركة، ويتجلى ذلك في قصيدة (ربّما، لأنّ الشتاء تأخّر) التي يقول فيها:[xxxi]

يمرُّ الزمانُ بنا، أو نمرُّ به

كضيوفٍ على حنطة الله

في حاضرٍ سابقٍ، حاضر لاحق،

هكذا هكذا نحن في حاجة للخرافة

كي نتحمَّلَ عبءَ المسافة ما بَيْن بابين ...

فالحاضرُ السابق (الماضي)، والحاضر اللاحق (المستقبل) الذي يعيش الانسان بينهما قد خرجا من تراتبيتهما الخطيّة واكتسبا صفة الحضور، واصبحت الذات تنشد الخلود لتحوّل الزمان كله إلى الحاضر المستمر والأبدي[xxxii] الذي لا ينقضي، إذ إنّ عبء الزمان وأوجاعه جعل الذات تخلق لنفسها خرافتها، خرافة انتفاء حركة الزمن، الخرافة التي تمحو المسافة ما بين زمانين/ بابين، ماضٍ ومستقبل، إذ إنّ الذات التي تعيش هذه المسافة تنشد الخلاص من عبء الزمان الخطي، فهذا العبء كامن في الذكريات، الآتية من الماضي، والتوقعات القادمة من المستقبل، وقد خلقت الذات المُكملَ لنفسها، المكمل الذي ينقذه من النقص الكامن في الحاضر أصالة، إذ إنّ الذات لا تعيش حاضرها كما هو بل يخلقها السابقُ واللاحق، وكان هذا المكمل هو الخرافة التي خلقها الانسان لنفسه.[xxxiii]

وقد يتّخذ الشاعر من الاستباق وسيلة لتجاوز المسافة التي تفصل بين الحاضر والمستقبل، والاستباق "هو الطريقة التي يؤثّر بها المستقبل على الحاضر"[xxxiv]، ذلك المستقبل المقلق الذي أرّق الانسان ويؤرقه، المستقبل الذي يحمل في طيّاته قلق الموت والمصير المحتوم، يقول الشاعر في قصيدة (جدارية):[xxxv]

ورأيتُ ما يتذكَّرُ الموتى وما ينسون...

هُمْ لا يكبرون ويقرأون الوَقْتَ في

ساعات أيديهمْ . وهَمْ لا يشعرون

بموتنا أبداً و لا بحياتِهِمْ . لا شيءَ

ممَّا كُنْتُ أو سأكونُ. تنحلُّ الضمائرُ

كُلُّها ."هو" في " أنا " في "أنت".

لا كُلُّ ولا جُزْءٌ. ولا حيٌّ يقول

لِمَيتٍ: كُنِّي!

...وتنحلُّ العناصرُ والمشاعرُ. لا

أرى جَسَدي هُنَاكَ، ولا أُحسُّ

بعنفوان الموت، أو بحياتيَ الأولى.

كأنِّي لَسْتُ منّي. مَنْ أنا؟ أأنا

الفقيدُ أم الوليدُ؟

إذ إنّ الانسان وحده هو الذي يشعر بأنّه يموت لكنه في الوقت نفسه يجهل زمن موته، إلاّ أنّه يدرك أنّه لا يموت في الماضي ولا في الحاضر[xxxvi] وإنّما موته كامن فيه مستقبلاً، لذلك كان الموت أحد أسباب قلق الانسان، هذا القلق الذي يجعله لا يعيش حاضره كما هو، بل المستقبل هو الذي يخلق مع الحاضر زمن الذات، إنّ الزمان مثل السهم الذي ينطلق، ففي كلّ لحظة أو نقطة تجد السهمَ ساكناً أو واقفاً غير متحرك، إنّه ساكن ومتحرك في الوقت نفسه؛ فكما أنّ عدد الوقفات مجتمعةً هو الذي يخلق حركة السهم وشكلها، كذلك بالنسبة للزمان فإنّه لا يتشكل لوحده وإنّما يشكله دفق الزمان السابق واللاحق فكانت المحصلة أن لا وجود للحاضر لوحده.

والشاعر في هذا النص يتجاوز لحظته ليعانق الموتى- الذين هم حدث المستقبل- ويراهم، فالذات تعيش لحظتين لا محسومتين، لحظة حضوره الآني ولحظة المستقبل، وكما أنّه يجمع بين الحياة والموت، فإنّ الموتى أيضاً يعيشون مفارقة الجمع بين الموت والحياة:

وهَمْ لا يشعرون

بموتنا أبداً و لا بحياتِهِمْ

إنّ الذات بدل أن تستقبل الموتَ تحلّ ضيفاً عليه، إنّها تسمو بروحها إلى تلك المعارج التي تنتفي فيها حضور الجسد، لتعود الروح إلى اللازمن إلى (لحظة) ما قبل النفخ لتكون تلك المواجهة تحدّياً في وجه الموت:

ولا حيٌّ يقول

لِمَيتٍ: كُنِّي!

فالروح لا زمني ولهذا لا تموت، والموت يفقد صفته السالبة؛ صفة سلب الأرواح، لأنّ الأرواح خرجت من حدود التزمين[xxxvii]، أو الزمان الخطي والأفقي إلى حدود الزمان السرمدي[xxxviii]؛ إنّ الروح تعود إلى اللازمان أو ما قبل الزمان، إنّها تعود إلى ذلك الموقف الذي لم تتلق فيه الأمر الالهي (كنْ)!، ولذلك تفقد الذات (الحي والميت) الاحساس بالحياة والموت أو بالزمن وحركته؛ إنّها لحظات مثالية تأمل الذات الواقعية في استمرارها أو عودتها الأبدية، لحظات يخرج فيها الزمان أو الحاضر الذي تعيشه الذات عن أن يكون آنيّاً، إذ تتحول الذات من الحاضر إلى المستقبل لتعانقه وتتقدم نحو الموت. فالزمان زمان لحظي؛ زمان يتأبّد فيه

الحاضر، وبانتفاء الزمان القياسي والخطي تنتفي الحياة والموت، وتخرج الذات من اطار الخوف والقلق على الوجود من الانفلات إلى طيّ العدم، إذ تنتفي الحياة (على هذه الأرض) لتسمو بها إلى مراتب الأبدية والخلود، إنّها لحظات خلود الوجود بوجه العدم وتأبي الحياة أمام الموت، وقد كان نيتشه يرغب في تخليد هذا الوجود الزائل للانسان المتناهي، ويبدو أنّه وجد في الايمان بالعود الابدي سبيلاً لتحقيق هذه الوظيفة.[xxxix]

إنّ الحياة والموت في هذا النص يقعان كدالين تحت علامة شطب، إذ إنّ الحياة لا تمثل نفسها ولا الموت يمثل الموت، إنّ جذوة كل واحد منهما تكمن في الآخر:

كأنّي لَسْتُ منّي. مَنْ أنا؟ أأَنا
الفقيدُ أم الوليدُ؟

وقد مزج الشاعر بين الواقعي والمتخيّل لكي يعيد القارئ إلى الواقع المعيش فيقول:[xl]

تقولُ مُمَرِّضتي: أنتَ أحسَن حالاً.
وتحقنُني بالمُخَدِّر: كُنْ هادئاً
وجديراً بما سوف تحلُمُ
عما قليل...

وهذا يعكس الصراع الذي تعيشه الذات في داخله بين الحياة والموت، وبين الواقع والمتخيّل، وبين المُعاش والمُتوقع، لكن رغم ذلك فإنّ الذات -وهي تعيش لحظات تواجه فيها المستقبل- جديرة بالحلم، ولهذا تهيؤ الذات للحلم والخروج من الواقع، وهذا الحلم الذي هو صنو الموت - إذ إنّ زمانهما إنْ كان لهما زمان مختلف عن الزمان الميتافيزيقي- ينتشل الذات من الزمان الخطي بما فيه من أوجاع إلى (الزمان) اللازماني[xli] الذي ينتفي فيه الماضي بذكرياته المؤلمة والحاضر بواقعه الأليم والمستقبل بما يحمل من توقعات مقلقة في ذهن الذات.

إنّ الحلم هو وسيلة بيدِ الانسان لتجاوز الحاضر[xlii]، ولمّا كان الفن يسمو بالواقع أو بالحاضر عن طريق اضفاء الجمال على الحياة الانسانية؛ وحتى في حالات التركيز على السلب الموجود في المجتمع، فإنّه يفعل ذلك بداعي التشخيص والمعالجة، لذلك كان الفنان دائماً حالماً بواقع يصوغه وينشده في داخله، أو أنّه يشخص عيوب الواقع باعتباره الحاضرَ، كلُّ هذا يفعله الفنان عن طريق الحلم بواسطة الخيال الخلّاق الذي يخلق ويبتكر الجميل والجليل بديلاً عن الواقع المعيش، وكان الادب عامة والشعر خاصّةً ينشد هذا الواقع المتخيل ليسمو بالواقع نحو المستقبل الذي يحمل في طياته الحياة الكريمة..

وقد تتجاوز الذات زمانها بما ينسيها من لحظات تفقد شعورها بالحاضر لتعود الى الماضي، إلى اللحظات الأولى التي لم تمتزج بالحضارة ولم تمتلك بعد (الاسم) أو لم تدخل حدود المواضعة، ففي القصيدة نفسها يستخدم الشاعر لفظة (الساعة) إذ يقول:[xliii]

لم تأت ساعتُنا. فلا رُسُلٌ يَقيسُونَ
الزمانَ بقبضة العشب الأخير، هل استدار؟ ولا ملائكةٌ
يزورون المكانَ ليترك الشعراءُ ماضِيَهُمْ على الشَّفَق
الجميل، ويفتحوا غَدَهُمْ بأيديهمْ.
فغنِّي يا إلهتيَ الأَثيرةَ، ياعناةُ،
قصيدتي الأولى عن التكوين ثانيةً ...
حين تُصَدِّقُ الدنيا وتعبُدُ خاشعاً
خَشَبَ الهياكل والرسومَ على جدار الكهف،
حيث تقول :"آثاري أَنا وأَنا ابنُ نفسي"

إذ يستخدم الشاعر الدال (الساعة) لا للدلالة على النهاية أو موعد الانتهاء بل على البداية التي تمثل العودة إلى الزمان الأولي الذي يفصل ما بين الوجود والعدم، فالماضي حاضر بشكله الآتي من الغد الجميل لأنّ "الشفق" الذي هو عتبة ما بين زمنين **يُكسب الماضي** دلالة الحياة والوجود ويُخرجه من العدم واللاوجود ليأخذ موقعه من الشفق الذي يفصل بين الماضي/ النهار والمستقبل/ الليل، واذا كانت للساعة دلالة النهاية والموت فإنّها هنا اكتسبت دلالة اللانهائي، لا النهاية والتوقف. ولما كانت الساعة الميتافيزيقية مقلقة للذات –لأنّها تعبر عن بدء الحركة نحو النهاية- فإنها اكتسبت دلالة الانفتاح على اللانهائي لتخرج الساعة كدالٍ يدل على نقطة نهاية إلى هذا الفضاء الواسع الرحب لتكون الساعة مشطوبة دلالياً، ولهذا يستنجد الشاعر بالفن (القصيدة)[xliv] ليعود إلى الزمان الأولي وإلى البدايات التكوينية أو قصة الخلق الأولية التي لم تدخل بعد حدود الوجود والزوال أي الحركة والتحوّل، ولم تدخل الذات بعد حدود حركة الزمن.

وقد مزج الشاعر الزمان الواقعي بالديني والاسطوري، تلك الحكايات والأزمنة التي خلد التاريخ ذكرها، لتخلد القصيدة ذكر الذات وتواجه بها الزمان الزائل، إذ إنّه كثّف من استخدامه الرموز والاساطير، فقد انتقل من الديني "**فلا رسلٌ يقيسون الزمان بقبضة العشب الأخير**" إلى الواقعي "**ليترك الشعراء ماضيهم على الشفق الجميل**" ومن ثمّ إلى الاسطوري متمثلاً في اسطورة "عناة"[xlv] وأسطورة "قصة التكوين والخلق"[xlvi] وكذلك "أسطورة الكهف"[xlvii] كل هذا التنقل بين العوالم كان من أجل تجاوز الواقعي بزمانه الخطي الذي تعيشه الذات، علّها تسمو به من الواقع الموجع إلى مراتب تحقيق الحلم المنشود في المستقبل القادم، ويدخلها اللازمن واللاتشكيل، ويمنحه الخلود.

إنّ الانسان قد يجد لذّته في مفارقة الواقع الذي يعيشه لذلك كان النسيان وسيلة لتجاوز هذا الواقع، سواء أكان هذا

النسيان بالحلم أو بالفن أو بغيرهما، فالذات لم تعد تحتمل عبء هذه الأرض المريضة كما يقول درويش:[xlviii]

هيّئ لي

نبيذاً أحمر للاحتفال بعودتي لعيادة

الأرض المريضة.

وقد يولّد الصراع لدى الانسان الشعور بالتألم مما تعرض ويتعرض له، والتألم "شعور الذات بأنّ شيئاً يحدّها في وجودها العيني، فهي تريد أن تحقق إمكانياتها في العالم الذي قذفت به ... وتحقيق الإمكانيات يصطدم بالغير لأنّه لا يجري في داخل الذات وحدها، بل لا بدّ أن يجري في الغير... فإذا ما لاقت في هذا التحقيق مقاومة تألّمت"[xlix] وهذا التألم والصراع قد يكون صراعاً داخلياً شعورياً نتيجة الاحساس العميق بالواقع المريض، أو قد يكون الصراع خارجياً بين حق وباطل، أو سيادة وعبودية، وينشأ في نفس الانسان نتيجة شعوره باستمراره وأزليته بحيث يقضي على الحاضر والمستقبل، يقول الشاعر في قصيدة "جدارية":[l]

قلتُ للسّجَّان عند الشاطئ الغربيّ:

هل أنت ابنُ سجّاني القديمِ؟

- نعم

- فأين أبوك؟

قال: أبي توفّيَ من سنين.

أُصيبَ بالإحباط من سَأم الحراسة.

ثم أوْرَثَني مُهمَّتَهُ ومهنته، وأوصاني

بان أحمي المدينةَ من نشيدكَ.....

قُلْتُ: مُنْذُ متى تراقبني وتسجن

فيَّ نفسَكَ؟

قال: منذ كتبتَ أُولى أُغنياتك

قلت: لم تَكُ قد وُلِدْتَ

فقال: لي زَمَنٌ ولي أَزَليَّةٌ.

فعلى الرغم من أنّ هذا الصراع يمثل صراعاً بين الاقطاب الثنائية، إلاّ أنّه يمثّل أيضاً صراع الأزمنة والأجيال. فـ(السجّان/ الباطل) مزمّنٌ، لكنه رغم تزمينه يدلُّ على محدوديته وتناهيه، فتكرار الصفة وتنقله بين الأب والابن دليل على الحضور الآني (الحاضر) المتلاشي الذي يتحوّل إلى الماضي، إنّه حاضر آني لأنّ هناك انقطاعاً وتحوّلاً (أبي توفي- أورثني)، في مقابل الحاضر الذي يعيشه (الذات/ الحق/ المسجون) الذي لا يتكرر ولا ينقطع، فهو يعاصر الاب والابن لذلك اتسمت بصفة الحضور الابدي، لأنّه ليس حاضراً بالمعنى المتواضع عليه بل حاضر مستمر، حاضر لحظي يعايش ويعاصر كل الأزمنة من غير انقطاعٍ أو تكرار.

إنّ السجّان/ الباطل رغم أزليته وقدمه مزمّنٌ لأنّ له زماناً محدوداً، وأنّ هناك حركة وتحوّلاً وصيرورة من ذات إلى آخر (من الأب إلى الابن)؛ أي: إنّه متغيّر، أمّا الذات/ المسجون فثابتة تتصف بالسرمدية، وقد دلّ على ذلك معرفتها بالاب والابن ومعاصرتهما:

هل أنت ابنُ سجّاني القديمِ؟

قال: أبي توفّيَ من سنين.

قُلْتُ: مُنْذُ متى تراقبني وتسجن

وإذا كان للموت هاجس كبير ووقع على كل انسان باعتباره حدثاً يقع في المستقبل، فإنّ هذا المستقبل له حضور ودور في الحدث الذي يعيشه الانسان في لحظته؛ وكما أنّ لهذا المستقبل دور سلبي في الزمان الحاضر، باعتبار أنّ ما يتجلى فيه؛ أي في المستقبل، – كالموت مثلاً - تحمل ما يسلب امكانية الذات ووجوده، أو يحدُّ من تحقيق أمكانياته، فإنّ له دوراً ايجابياً أيضاً ينطلق ذلك من رؤية الذات تجاه هذا القادم رؤية متفائلة، يقول الشاعر في قصيدة (حالة حصار):[li]

يقولُ على حافَّة الموت:

لم يَبْقَ بي مَوْطِئٌ للخسارةِ:

حُرٌّ أنا قرب حريتي

وغدي في يدي ...

سوف أدخُلُ عمَّا قليلٍ حياتي

وأولَدُ حُرّاً بلا أَبَوَيْن،

وأختارُ لاسمي حروفاً من اللازوردْ...

....

كُلَّما جاءني الأمسُ، قلت له:

ليس موعدُنا اليومَ، فلتبتعدْ

وتعالَ غداً!

فالذات هنا يترك الموت وراءه وكأنّ الموت هو الذي يموت، إذ تنال الذات حريتها التي لا يفصلها عنها سوى هذا الخيط الهلامي الدقيق؛ إنّ الزمان الذي تولد فيه الذات من جديد ليس زماناً خطياً، إنّه يحاول أن يموقع الماضي ويلونه بالغد/ المستقبل:

كُلَّما جاءني الأمسُ، قلت له:

ليس موعدُنا اليومَ، فلتبتعدْ

وتعالَ غداً!

لتولد الذات حرّاً من جديد، فالمستقبل يحمل في طياته مرحلة ولادة جديدة تنعتق فيها الذات من أسر الزمان ليتحوّل إلى (الزمان) الأوّل؛ (زمان الروح)، ذلك الزمان اللازماني الذي كانت الروح فيه قبل أن تهوي إلى العالم السفلي وتسكن الجسد المتزمن. فالمستقبل الذي يتجلى في الموت هنا حامل للحريّة

والخلاص من رقبة الدنيوي لتنال الذات الخلود، وينتفي الموت أو يموت بهذا الخلود. إنّ الذات تتحوّل من مفعولية إلى فاعلية:

سوف أَدخُلُ عمَّا قليلٍ حياتي

وأولَدُ حُرّاً بلا أَبَوَيْن،

وأختارُ لاسمي حروفاً من اللازوردْ...

والمستقبل الذي كان يحمل هاجس القلق للذات أصبح يحمل البشارة والميلاد الجديد ونيل الحرية الأبدية، وبذلك يتحوّل الزمان المستقبلي من السلبي إلى الايجابي، وتتحول الذات من الاستلاب إلى الاسترداد.

ولمّا كان الوجود آيلاً إلى الزوال فإنّ الذات الشعرية تدعو أحياناً إلى العيش في الحاضر، وهذه الدعوة ليست من أجل استغلال الحاضر كما هو فقط بل لمحاولة تأبيد تلك اللحظات وذلك بتعميقها، فما دامت الحياة آيلة إلى الزوال، وما دام الموت نتيجة حتميّة بالنسبة للانسان، فالتفكير فيه يجعله يتجاوز لحظته، ولهذا فإنّ الذات تدعو إلى اغتنام اللحظات التي يعيشها مستغنياً عن عشبة الخلود كما فعل جلجامش لتعوض عنها بالتوغل في اللحظة والتلذذ بها لتمنحها حياةً سرمدية، إذ إنّ الذات عندما تعرف لحظات قوة وحرية قصوى فإنها تحس ما يسميه نيتشه "خفة الراقص"، تحس شعوراً بالتصالح مع الواقع يبلغ من القوة ما يجعله لا يتمالك عن رجاء استمرار تلك اللحظات إلى الأبد، إنها لحظات توافق كامل مع الحاضر الذي يقيم فيه المرء آنذاك بلا اهتزاز ودون تفكير في الماضي، ولا في المستقبل بحيث لم تعد اللحظة الراهنة نسبية بالنظر الى الذكريات أو المشاريع، بل تصبح وكأنها بذرة من الأبدية وهذا هو العود الابدي[ii]، إذ تنقطع الذات عن الاحساس بما حولها، ولذلك فإنّ الخلود في هذا المقطع من قصيدة (جداريّة) تمثّلت في التناسل:[iii]

[كُلُّ شيء باطلٌ، فاغنَمْ

حياتَكَ مثلما هِيَ برهةً حُبْلَى بسائلها،

دَمِ العُشْب المُقَطَّرِ.عِشْ ليومك لا

لحلمك. كلُّ شيْء زائلٌ. فاحذَرْ غداً

عِشِ الحياةَ الآن في أُمرأةٍ

تحبُّكَ. عِشْ لجسمِكَ لا لِوَهْمكَ.

وانتظرْ

ولداً سيحمل عنك رُوحَكَ.

فالخلودُ هُوَ التَّنَاسُلُ في الوجود.

وكُلُّ شيءٍ باطلٌ أو زائل ، أو

زائل أو باطلٌ].

وكأنّها دعوة إلى العود الأبدي لتلك اللحظات، لتمنح الذات ما تفتقر إليه وهو الحياة، فتتلذذ بهذه الهبة، لذلك تجد الذات أملها في الحاضر اللحظي، وفي استمرار حياتها في الآخرين؛ إنها العيش من أجل الآخر، أو إنها بالاحرى ايثار وعود أبدي للحياة التي يصرّ الانسان على بقائها، وكأنّه يريد أن تكون جذوته مشتعلة مثل شعلة الاولمب، وتكمن في هذا الخطاب مفارقة موجعة وهي أنّ الذات التي تنشد الخلود ولا تستطيع امتلاكه - لانّ هناك ما يحول دون تحقيق تلك الامكانية وهو الموت- إلاّ أنّها تهب الحياة في الوقت الذي يكون الفقد والموت فيها صفة تكوينية، إنّها واهبة للحياة مع أنّها فاقدة لها أصالة وهنا تكمن المفارقة.

ولطالما فشل الانسان منذ القدم أن يتجرّع من كأس الخلود فإنّه استغنى عن ذلك بما يسمو به من ذلك الواقع المؤلم الذي يعيشه أو المستقبل الذي ينتظره، ذلك المستقبل الذي يحمل في طيّاته الأمل والألم، لذلك فإنّ البحث عن الخلود سواء أكان في الذات أو في الآخرين وحفظ النسل البشري وعودته على الدوام واستمراره في التدفق هو السبيل لتجاوز محنة العدم لأن "الخلود هو التناسل في الوجود".

وإذا كان للمستقبل دور في تشكيل الحاضر، فإنّ للماضي والذكريات التي يحملها أيضاً دوراً في صياغته، يتجلى ذلك في قصيدة (ضباب كثيف على الجسر):[iv]

قال لي صاحبي، والضبابُ كثيفٌ

على الجسر:

هل يُعْرَفُ الشيءُ من ضدّهِ؟

قلت: في الفجريتّضِحُ الأمرُ

قال: وليس هنالك وقتٌ أَشدّ

التباساً من الفجر،

......

- إلى أين يأخذنا الفجرُ، والفجر

جِسْرٌ، إلى أين يأخذنا؟

....

- سأُوقظُ روحي على وَجَعٍ سابق

قادم كالرسالة، من شرفة الذاكرةْ

سأهتف: ما زلتُ حيّاً، لأنيَ

أَشعربالسهم يخترق الخاصرةْ

إذ يبدأ الشاعر النص بالحوار تخترقه جملة اعتراضيّة يصور بها مشهداً خاطفاً للجسر، ومن ثمّ يبدأ النص بسؤال ذي مغزى عميق:

هل يُعْرَفُ الشيءُ من ضدّهِ؟

فإذا كان المكان الذي يجري فيه الحوار هو الجسر، والجسر دال مشفّر يدل على ما لم يحسم أمره لأنّه لا ينتمي إلى أي طرف، واقع في الوسط، فإنّ الزمان أيضاً يكشف أو يتمّ هذا المعنى

وهذا التساؤل غير المحسوم لأنّ الزمان (فجرٌ) "وليس هناك وقت أشدّ التباساً من الفجر". إنّ الزمان والمكان يوازيان دلالياً التساؤل الذي ورد في الجملة الأولى من النص من حيث عدم القدرة على الإجابة عن سؤال الزمان والمكان كما الاضداد، وعدم حسم الأمر للتساؤلات الاشكالية جميعاً.

فإذا كان المكان (الجسر) فاصلاً بين جانبين، فإنّ الفجر فاصل بين زمانين، زمان الظلام (الليل) وزمان الضياء (النهار). فهل يمكننا الإجابة عن الفجر وإلى أي زمان ينتمي؟:

هل يُعْرَفُ الشيءُ من ضدّهِ؟

قلت: في الفجر يتّضِحُ الأمرُ

قال: وليس هنالك وقتٌ أَشدّ

التباساً من الفجر،

وإذا كنا لا نعلم شيئاً عن الاضداد التي تقف على جانبي الجسر أهي (حب أم حرب، نور أم ظلام، وجود أم عدم)، فإن ما يقع على اطراف الفجر يكشف لنا عمّا يقع على طرفيه، فالفجر فاصل زمني بين الظلام والضياء أو بين الماضي والمستقبل، إنّه يماثل الحاضر الذي يفصل بين الماضي والمستقبل، إلاّ أنّ الفجر يبعث بدلالة ايجابية في أنّه مقبل على الضوء والنهار كما يقبل الحاضر على المستقبل وبذلك اكتسب المستقبل دلالة ايجابية من خلال مماثلته بالنهار الذي يلي الفجر، أمّا الماضي/ الليل فهو حامل للوجع القادم من الذكريات:

- سأُوقظُ روحي على وَجَعٍ سابق

قادم كالرسالة، من شرفة الذاكرةْ

أمّا الحاضر/ الفجر فإنّه متنقل ومتحوّل لا وجود له لأنّ ما يشكله هو طرف من الماضي/ الليل وطرف من المستقبل/ النهار، وهو لم يكتسب التسمية إلا بحضور الغائب فيه الذي هو الماضي/ الليل، والمستقبل/ النهار؛ إذن فإنّ حركة الأزمنة الثلاثة معاً شكلت الحاضر في لحظته، فكما أن حركة السهم المنطلق من القوس تشكلها توقفات سابقة ولاحقة، لأنّ حركته عبارة عن مجموعة من الوقفات، كذلك بالنسبة للسهم الذي يخترق الخاصرة والذي هو سهم الزمن المتمثل بالماضي الموجع والواقع الأليم، كلها معاً تشكل الحركة وذلك بالتذكر والمعايشة والتوقع والانفتاح.

وقد حمل الايقاظ في داخله دلالتين غير محسومتين ومتساويتين في الدلالة، دلالة سلبية آتية من الماضي تتمثل في الوجع والألم الذي يلحق الروح، ودلالة ايجابية كامنة في أن هذا الايقاظ السلبي أيقظ الروح على القادم الايجابي المتمثّل في تجاوز حدود الدلالة المتناقضة وغير المحسومة إلى الانفتاح على المستقبل/ النهار الذي يلي الحاضر/ الفجر.

ولمّا كان التلاقي بالموت مستحيلاً لجأت الذات الى استباق الزمن وذلك بأن تعيش مع الاحتمالات المفتوحة للمستقبل المنفتح على كل شئ، إذ يتماهى الحاضر مع المستقبل في لحظة واحدة، والحي مع والميت، فقصيدة (لا أعرف الشخص الغريب) تمثّل تلاقياً بين المتناقضات التي لا تجتمع منطقياً، بين الحاضر والماضي، والحي والميت، يقول الشاعر:[١٧]

لا أَعرف الشخصَ الغريبَ و لا مآثرَهُ....

رأيتُ جِنازةً فمشيت خلف النعش،

مثل الآخرين مطأطئ الرأس احتراماً. لم

أجد سَبَباً لأسأل: مَنْ هُو الشخصُ الغريبُ؟

وأين عاش، وكيف مات [فإن أسباب

الوفاة كثيرةٌ من بينها **وجع الحياة**]

سألتُ نفسي: هل يرانا أَم يرى

عَدَماً ويأسفُ للنهاية؟ كنت أعلم أنه

لن يفتح النَّعْشَ المُغَطَّى بالبنفسج كي

يُودِّعَنا ويشكرنا ويهمسَ بالحقيقة

[ما الحقيقة؟]. رُبّما هُوَ مثلنا في هذه

الساعات يطوي ظِلّهُ. لكّنهُ هُوَ وحده

الشخصُ الذي لم يَبْكِ في هذا الصباح،

ولم يَرَ الموت المحلّقَ فوقنا كالصقر...

[فالأحياء هم أَبناءُ عَمِّ الموت، والموتى

نيام هادئون وهادئون] ولم

أَجد سبباً لأسأل: من هو الشخص

الغريب وما اسمه؟ [لا برق

يلمع في اسمه] والسائرون وراءه

عشرون شخصاً ما عداي [أنا سواي]

وتُهْتُ في قلبي على باب الكنيسة:

ربما هو كاتبٌ أو عاملٌ أو لاجئ

أو سارقٌ، أو قاتلٌ... لا فرق،

فالموتى سواسِيَةٌ أمام الموت... لا يتكلمون

وربما لا يحلمون...

وقد تكون جنازةُ الشخصِ الغريب جنازتي

لكنّ أمراً ما إلهياً يُؤَجِّلُها

لأسبابٍ عديدةْ

من بينها: خطأ كبير في القصيدةْ!

وإذا كان لا بدّ لكل انسان أن يموت فإنّ الذات - ولمواجهة هذا الفناء- تسعى إلى البقاء والخلاص من هذا المخيال المثقل بصور الموت والفناء، لتغير صورة الحاضر في مقابل المستقبل الذي يحمل الموت، لذلك فهي تعانق الموت في زمانه، فضلاً عن أنّها تعيش زمانين، الزمان الحاضر والمستقبل، وقد وجدت من هذا

التلاقي بينها/ الحاضر وبين الموت/ المستقبل سبباً للتسامي بالازمنة المتناهية وتغيير الصور التي تشكلت في المخيال البشري[lvi]. وقد وجدت الذات في المخيلة خلاصاً لانتفاء الزمان الخطي والتماهي مع المستقبل/ الموت والتصالح معه، ولم تجد سبباً للسؤال والتفكير فيه كصورة نمطية:

ولم

أجد سبباً لأسأل: من هو الشخص

الغريب وما اسمه؟

....

لا فرق،

فالموتى سواسِيَةٌ أمام الموت...

إنّ هذه المصالحة مع الموت وتغير صورته والتماهي بين زمان الحيّ وزمان الميت يعود إلى التماهي بينهما، أي التماهي بين الحياة والموت وبين زمنيهما إذ لا فرق بين الحي والميت سوى أن المخيال البشري هو الذي أضفى عليهما هذه الصفات، وألحق بهما ما ليس من طبيعتهما فـ:

فالأحياء هم أبناءُ عَمِّ الموت، والموتى

نيام هادئون وهادئون.

إنّ أمراً ما يؤجل هذه (الحقيقة) وهذا (الوعي) الجديد بطبيعة البقاء والفناء والحياة والموت، والواقع والمستقبل والخيال والمخيال، وهذا الأمر هو العودة إلى الواقع والصورة النمطية المعتادة، لذلك فإنّ أي خطأ في القصيدة هو انتشال الذات من عالم الخيال إلى عالم المخيال والواقع بكل صوره ومفاهيمه تجاه الانسان ووجوده.

الخاتمة

وفي الختام يمكن تلخيص أهم النتائج التي توصل إليها البحث في الآتي:

1- كل مرحلة من مراحل التجربة الشعرية لمحمود درويش تمثّل استجابة زمانية معينة، سواء أكان الزمان ماضياً متعلقاً بالتراث، أم حاضراً تفرضه تجربة الواقع الجديد، أم مستقبلاً تمليه التجربة الداخلية للذات بانكماشها نحو الداخل. فقد كان الزمان في بدايات خطابه الشعري زماناً ذا مرجعيات تراثية أخضعت قصائده لهذه المركزيات، وقد تحوّل الخطاب الشعري نتيجة تحوّل في التجربة الشعرية وذلك لاستجابتها للواقع الجديد الذي مثّلها الحضورُ، إلا أنّ هذا التحوّل انتقل إلى المستقبل الذي مثّله القلق –كمثال- فانكمشت الذات في خطابه للزمان إلى الداخل الذي أملته تجربة القلق والاسئلة الوجودية وطبيعة المرحلة الشعرية.

2- فكّكت الرؤيا الشعرية للزمان خطابَ الزمان الميتافيزيقي، وما يقع فيه من حدثٍ، من ذلك أنّ الموتَ الواقعَ مستقبلاً والجامع بين قلق الوقوع، والوقوع الفعلي مفكّكٌ زمانياً، مقوضُ الدلالةِ، فقد تحوّلت دلالته المتراتبة زمانياً حسب تسلسل خطي زماني إلى لحظات تنعدم فيه الدلالة الزمنية الخطيّة ليصبح جامعاً بين الممكن والمستحيل.

3- تردد الخطاب بين الخيالي والواقعي، وبين الممكن والمستحيل أو بين الواقعي والاسطوري الذي فرضته طبيعة الموضوع، إذ إنّ الخطاب يطرح من جهة واقعاً خارجياً خاضعاً لتراتب زماني، ومن جهة أخرى يتناول عالماً داخلياً يقوّض الواقع الخارجي، وقد أثّرت هذه الرؤية على حركة الخطاب، فجمع بين رمزية متوغلة في الغموض، وخطاب واقعي يعيد القارئ إلى حركة الواقع الخارجي.

4- كان للتألم الذي استشعرته الذات في الخطاب الشعري لمحمود درويش دوراً في تجاوز الذات زمانها الخطي، لأنّ هناك ما يحدّ من حركتها للوصول إلى هدفها، وهذا ما يجعلها أن تتجاوز زمانها وحضورها لتسمو في لحظات عن الواقع؛ أو قد تكون بالعكس، فاللذة التي استشعرتها الذات جعلتها تؤبّد لحظاتها أملاً في عودتها الأبدية.

الهوامش

[i] هل الزمن موجود: 9

[ii] لم يتفق العلماء حتى داخل الحقل الواحد على صياغة مفهوم واحد وواضح ومحدد للزمن، إلا أنّهم يشتركون أو يتفقون في صياغة الخطوط العريضة له تبعاً للزاوية التي يتناولونه منها، فمثلا التصور العلمي للزمن "يجعل الإنسان ذاتاً والزمان موضوعاً، أي بمعنى الإقرار بفصل منهجي بين الذات الإنسانية والزمان كمؤثر خارجي" **مفهوم الزمان في فلسفة برغسون:** 10، ولما كان العالم يحمل التغير والصيرورة بحثوا عن قياس يقيس من خلاله هذه التغيرات الحاصلة، فالزمان حسب هذه الرؤية هو الزمان المقيس، وهذا الزمان المقيس لا يقربنا من ماهية الزمان المستمر، ويتجاهل الطبيعة الداخلية النفسية للذات البشرية، وهو غير قادر على احتواء الابداعات والحالات الشعورية الخاصة. **مفهوم الزمان في فلسفة برغسون: 52.**

[iii] "الماضي والمستقبل في نظر اليونانيين يبدوان وكأنهما شرّان كبيران يثقلان على الحياة البشرية، فالماضي يمنعنا من الاقامة في الحاضر، إمّا لانه كان سعيداً ويشدنا في شباك الحنين، واما لانه كان شقياً ويغرقنا في ما يسميه سسبينوزا بتعبير جميل "الاهواء الحزينة"، وفي ضروب الاسف والندم والخجل والشعور بالاثم، التي تصرفنا عن الفعل وتلجم مبادراتنا وتضعف قدرتنا على اغتنام الوجود والعيش في اللحظة الراهنة، وعندئذٍ تساورنا الرغبة في الارتماء بين احضان خيال وهمي آخر

متجه هذه المرة نحو المستقبل: وهو الامل" أجمل قصّة في تاريخ الفلسفة: 29.

مفهوم الزمان في فلسفة برغسون: 55

الزمان أبعاده وبنيته: 118

مفهوم الزمان في فلسفة برغسون: 73

هل الزمن موجود: 21

لحظة الأبدية دراسة الزمان في أدب القرن العشرين: 9

الازاحة والاحتمال، صفائح نقديّة في الفلسفة العربية: 198-199.

الضلال المرجعي "اللحظة التي يعلن فيها العمل الادبي -بطريقته الخاصة في الظهور والتجلي- انتسابه الى صنف بلاغي محدد تتكون بمقتضاه عباراته الادبية بينما يكشف النظر المدقق في كيفية اشتغال عباراته عن انتسابها الى صنف بلاغي آخر غير ذلك المعلن" مداخل إلى التفكيك: 26-27.

التراث والاختلاف، هايدغر ضد هيغل: 13

تفكيك البلاغة وبلاغة التفكيك: 24

الدال والاستبدال: 37

التراث والاختلاف، هايدغر ضد هيغل: 52

م.ن: 54

أسس الفكر الفلسفي المعاصر، مجاوزة الميتافيزيقيا: 35-36

م.ن: 36

الاثر "يشير الى عدم كفاية العلامات اللغوية فهي واقعة تحت لمحو وهو مصطلح صاغه دريدا ليشير الى عدم الحضور under erasure الكامل لاية علامة، فكلمة (شكل) تبقى(مشطوبة) تحت لمحو (شكل) فلا توجد علامة تشير الى دال أزلي، وهي لا تتمتع بقيمة مطلقة ولا تشير الى دال متعال يمثل حضوره بعيداً عن العلامة التي تستمد حضورها من السياق وان جل ما نستطيع القيام به هو ان تذكرنا بما هو كامن فيها" النصّ الصوفي دراسة تفكيكية في نصوص أبو يزيد البسطامي نموذجاً: 40، وليس المقصود من الاثر هو الاثر الامبريقي أو التجريبي "وانما الاثر هو هيئة الاختلاف المرجئ حال حضوره، فالطيف مثلاً هو أثر لانه ليس حضوراً ولا غياباً وليس وجوداً ولا عدماً"، مدخل إلى التفكيك: 288.

أسس الفكر الفلسفي المعاصر، مجاوزة الميتافيزيقيا: 79

الكتابة والاختلاف: 53

أسس الفكر الفلسفي المعاصر، مجاوزة الميتافيزيقيا: 48

م.ن: 84. ونظرية العود الأبدي تقف ضد الزمان الخطّي، و"تقتضي التخلي عن مفهوم الزمان الممتد على خط مستقيم" الموت في الفكر الغربي: 233. و"مذهب العود الابدي .. ليس له بالتأكيد اي علاقة بفكرة زمان دائري نجده من بين موضوعات اخرى في العصر اليوناني القديم، ولا يتعلق الامر في شئ باطروحة كوسمولوجية، بل يتعلق فعلاً بمنهج تأملي يسمح بانتقاء لحظات العظمة في وجودنا، كما لحظة اللقاء بين اوليسيس وبنلوب الذي يستحق بحق ان يتجدد عدد لا متناهياً من المرات وان يختار ان جاز القول في مرتبة الابدية"، أجمل قصّة في تاريخ الفلسفة: 299.

الشطب أو لكشط أو المحو "يعني: أن نكتب مفردة ما مشطوبة بحيث يظهر لنا كل من المفردة وشطبها، طالما ان المفردة غير دقيقة فإنها تحت علامة كشط، وطالما انها ضرورية فانها تظل مقروءة" صور دريدا: 27، وهو "احد الاستراتيجيات التي يستخدمها دريدا في تفعيل الشك في المفاهيم، استعارها مباشرة من الممارسة النصية لهايدغر، وهي طريقة أي كتابة الكلمة under erasure وضع الكلمات تحت الكشطة وشطبها في النص لتنبيه القارئ بألا يقبل القيمة الفلسفية للكلمة المشطوبة" في نقد التفكيك: 227

صور دريدا: 71

الوجود والزمان لهيدجر: 533

لحظة الابدية دراسة الزمان في أدب القرن العشرين: 18

معجم الأدباء، ارشاد الاريب إلى معرفة الأديب: 5/ 2103.

الأعمال الشعرية الكاملة: 2/ 208-212

للمزيد حول هذه الأسطورة ينظر الأساطير اليونانية والرومانية، أمين سلامة: 32-34

معجم علم النفس والتحليل النفسي: 290

الأعمال الشعرية الكاملة: 749/2

الحاضر الأبدي "هو الزمان سواء كان ماضياً أو مستقبلاً، فهو دائم الحضور في الذهن" معجم مصطلحات هيجل: 272

إن الانسان – نتيجة النقص الكامن فيه- بحاجة إلى ما يكمل هذا النقص، وقد خلق لنفسه هذا المنقذ عبر العصور، وورد ذكره في الاديان أيضاً، إذ إنّه ينقذ الانسان من معاناته وآلامه، فكان هذا المنقذ متمثلاً في عيسى (عليه السلام) أو المهدي المنتظر.

معجم تمهيدي لنظرية التحليل النفسي اللاكانية: 213

الأعمال الشعرية الكاملة: 3/ 27-28

مفهوم الزمان في فلسفة برغسون: 97

التزمين هو الوجود داخل الزمان.

السرمدي: هو ما لا بداية له ولا نهاية. معجم مصطلحات هيجل: 49

الموت في الفكر الغربي: 232

الاعمال الشعرية الكاملة: 3/ 29

لقد أصبح الانسان فريسة للضجر والقلق حتى عندما لا يكون هناك أي داعٍ للألم، أو لا يكون هناك خطر خارجي يتهدده، فإذا تعمقنا في دراسة جوهر هذه الانفعالات لتبين لنا أنّ الدافع الوحيد إليها هو الزمان، الذي يصبح، إذا ما تغلبنا على جميع مشاكلنا هو مشكلتنا الحقيقية. لحظة الابدية دراسة الزمان في أدب القرن العشرين: 16

يقول أوغسطين: "من الثابت والواضح لديّ الآن، أن لا وجود للمستقبل ولا للماضي، وخطأ نقول بوجود ثلاثة أزمنة: الماضي، والحاضر، والمستقبل، وقد يكون الأصحّ أن نقول: في الكون ثلاثة أزمنة: حاضر الماضي، وحاضر الحاضر، وحاضر المستقبل" اعترافات القديس اوغسطينوس: 254 نقلاً عن: مفهوم الزمان في فلسفة برغسون: 69 وذلك لأن الانتباه والتيقّظ للحياة يجعل

الزمان كله محصوراً في الحضور، لأنّ التذكر والتنبؤ مثلاً يوحيان لنا بتعبيرات مثل الماضي والمستقبل، وهي تعبيرات وهميّة لا تملك وجوداً حقيقياً قائماً بذاته . مفهوم الزمان في فلسفة برغسون: 70، ولذلك استخدمنا الحاضر هنا بمعنى الازمنة الثلاثة، لأنّ الماضي حاضر عن طريق التذكّر والمستقبل عن طريق التوقع.

الاعمال الشعرية الكاملة: 3/ 45-46

لمّا كان الانسان معرضاً للفناء فقد بحث عمّا يخرجه من هذا القلق كبديل أو مكمل لهذا النقص، لذلك فقد وجد في الفن ملاذاً يخرجه من الزمان الزائل إلى اللازمان، إلى اللحظة التي يفقد فيها الشعور بالزوال، لذلك فقد أصبح العدم يتحكّم في الوجود.

آلهة من آلهات الخصب القديمة، تمتلك مجموعتين من الخصائص المتناقضة، فهي من جهة ربة الحب والجنس والحياة، ومن جهة أخرى ربة الحرب والدمار والكوارث، ربة الظلام، محبة رقيقة رؤوم، وقويّة جبارة متسلطة. للمزيد حول هذه الاسطورة ينظر مغامرة العقل الأولى: 120-121.

أساطير الخلق والتكوين هي أساطير تؤرخ للحياة على هذه الأرض، وقد كانت لكل الأمم أساطيرها حول قصة الخلق والتكوين.

هذه الاسطورة قصة ذكرها افلاطون على لسان سقراط في كتابه الجمهورية في الباب السابع، وخلاصة هذه القصة تفيد بأنه لو وضعت مجموعة من الاشخاص في منزل تحت الارض على شكل كهف، بحيث تطل فتحته على النور، ويليها ممر يوصل إلى الكهف، بحيث تظهر الظلال على جدار الكهف لاعتقد هؤلاء الاشخاص أن هذه الظلال هي الحقيقة، وسيكون اقتناعهم بأنّ هذه ليست هي الحقيقة ولا تمثّلها، بل هي ظلال الحقائق الكامنة خارج الكهف صعباً إن لم يكن مستحيلاً. للمزيد حول هذه الاسطورة ينظر كتاب جمهورية أفلاطون: 403-407.

الأعمال الشعرية الكاملة: 3/ 62

هيدغر والسؤال عن الزمان: 158

الأعمال الشعرية الكاملة: 3/ 94-95

م.ن: 3/ 116-122

أجمل قصة في تاريخ الفلسفة: 52

الاعمال الشعرية الكاملة: 3/ 84-85

م.ن: 3/479-488

م.ن: 3/ 417-419

المخيال بنية متسقة من التصورات تتشكل لدى أمّة أو جماعة أو جيل أو فرد في فترة معينة، وهو -إن شئنا- عبارة عن حلم جماعي أو فردي تفرزه أوضاع ما في سياق تاريخي معين" المخيال الشعري التسعيني من خلال انموذج لحافظ محفوظ: 45.

المصادر

1- أجمل قصّة في تاريخ الفلسفة، لوك فيري بالتعاون مع كلود كبلياي، ترجمة: محمود بن جماعة، دار التنوير للطباعة والنشر، ط1، 2015.

2- الازاحة والاحتمال، صفائح نقديّة في الفلسفة العربية، محمد شوقي الزين، الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف، ط1، 2008

3- الأساطير اليونانية والرومانية، أمين سلامة، 1988، دار الثقافة العربية للطباعة والنشر والتوزيع.

4- أسس الفكر الفلسفي المعاصر، مجاوزة الميتافيزيقيا، عبدالسلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، ط1، 1991.

5- القديس اوغسطين، اعترافات القديس اوغسطينوس، نقلها إلى العربية الخوري يوحنا الحلو، دار المشرق بيروت، ط5، 1996.

6- الاعمال الشعرية الكاملة، محمود درويش، مؤسسة محمود درويش، رام الله فلسطين، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان الاردن، دار الناشر، رام الله فلسطين، الطبعة الأولى، 2014.

7- التراث والاختلاف، هايدغر ضد هيغل، عبدالسلام بنعبد العالي، ط2، 2006، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت.

8- تفكيك البلاغة وبلاغة التفكيك في نصوص المواقف للنفري، سامية بن عكوش، منشورات ضفاف، دار الأمان، منشورات الاختلاف، ط1، 2014.

9- الدال والاستبدال، عبدالعزيز بن عرفة، الناشر: دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1 ، 1993

10- الزمان أبعاده وبنيته، د.عبداللطيف الصديقي، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، 1995

11- صور دريدا ثلاث مقالات عن التفكيك، جايتريا سبيفاك، كريستوفر نوريس، اختيار وترجمة: حسام نايل، مراجعة وتقديم: ماهر شفيق فريد، المجلس الاعلى للثقافة، 2002.

12- في نقد التفكيك، نصوص مختارة مع مقدمة نقدية شاملة، تأليف وترجمة عبدالمنعم عجب الفيا، منشورات ضفاف، دار الأمان منشورات الاختلاف، ط1، 2015

13- جمهورية أفلاطون، دراسة وترجمة د.فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2004.

14- الكتابة والاختلاف، جاك دريدا، ترجمة كاظم جهاد، تقديم محمد علال سيناصر، دار توبقال للنشر، ط2، 2000.

15- لحظة الأبدية دراسة الزمان في أدب القرن العشرين، سمير الحاج شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1980.

16- المخيال الشعري التسعيني من خلال انموذج لحافظ محفوظ: 45 / محمد صالح بن عمر / الحياة الثقافية سبتمبر 2007.

17- مداخل إلى التفكيك البلاغة المعاصرة، جاك دريدا بول دي مان وآخرون، تحرير وترجمة: حسام نايل، تصدير: محمد بدوي، الناشر الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط1، 2013

18- مدخل إلى التفكيك، تأليف: ميشال رايان، جوناثان كلر، ريتشارد رورتي، كريستوفر نوريس، تحرير وترجمة: حسام نايل، الهيئة العامة لقصور الثقافة– القاهرة، ط 1 ، 2008.

19- معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي الرومي، تحقيق: احسان عباس، دار الغرب الاسلامي، ط1، 1993.

20- معجم تمهيدي لنظرية التحليل النفسيّ اللاكانية، ديلان إيفانس، ترجمة د.هشام روحانا، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، ج1، 2016.

21- معجم علم النفس والتحليل النفسي، تأليف د.فرج عبدالقادر طه، د.محمود السيد أبو النيل، د.شاكر عطيّة قنديل، د.حسين عبدالقادر محمد، العميد مصطفى كامل عبدالفتاح، أشرف عليه وراجعه د.فرج عبدالقادر طه، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط1.

22- معجم مصطلحات هيجل، ميخائيل انوود، ترجمة امام عبدالفتاح امام، المجلس الأعلى للثقافة، 2000.

23- مغامرة العقل الأولى، دراسة في الاسطورة – سوريا وبلاد الرافدين، فراس السواح، دار الكلمة، ط11، 1996.

24- مفهوم الزمان في فلسفة برغسون، د. العربي ميلود، ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية– ناشرون، ط1، 2013

25- الموت في الفكر الغربي: جاك شورون، ترجمة: كامل يوسف إمام، مراجعة: د.إمام عبدالفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة ع 76، أبريل 1984.

26- النصّ الصوفي دراسة تفكيكية في نصوص أبو يزيد البسطامي نموذجاً، د.عبدالله جميل شامي الراشدي، عالم الكتب الحديثة، إربد– الأردن، 2014

27- هل الزمن موجود، اتيين كلاين، ترجمة: فريد الزاهي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة مشروع كلمة، ط1 .2012

28- هيدغر والسؤال عن الزمان، فرانسواز داستور، ت: د.سامي أدهم، ط2، 2002، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

29- الوجود والزمان لهيدجر، زكريا ابراهيم، مجلة تراث الانسانية، ع 7، 1 يوليو 1965، مصر.